مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 56 (خريف 2003)، ص 85

ملف القدس

السكاكيني في نيويورك
الفترة التكوينية في حياة أديب مقدسي
1907 – 1908*

سليم تماري**

في يقظتي، في نهاري، وأنا في معترك الحياة الهائل، وأنا أسير في شوارع نيويورك وقرقعة القطارات والترامات على الأرض وفوق الأرض، وعواء البواخر، وضجيج الناس، تصمّ الآذان، وحركة السيارات والعربات تخطف الأبصار، لا أفيق على نفسي إلاّ محلقاً في جو القدس، تارة فوق المدرسة، وتارة فوق المنزل الذي أحبه وأجلّه، وتارة فوق "أرتاس" أو "قالونة" أو "عين كارم" أو "رام الله" أو "بيت جالا".

(رسالة إلى سلطانة، نيويورك، 13 كانون الأول/ديسمبر 1907)

هجر خليل السكاكيني وطنه ثلاث مرات: الأولى كانت سفرته إلى أميركا بحثاً عن العمل وهو في العشرينات من عمره؛ الثانية عندما نفته السلطات العثمانية إلى دمشق سنة 1918؛ الثالثة في إثر حرب 1948 عندما نزح هو وعائلته إلى القاهرة.(1)

تنشر مذكرات السكاكيني بعد قرن تقريباً من بداية تدوينها، وبعد مضي خمسين عاماً على وفاته. وهذه، بحسب علمي، أول مرة في تاريخ الأدب العربي الحديث يتوفر فيها للقارئ أن يطلع على يوميات كاتب دوّنها في لحظة معايشته الحدث، وليس، كما جرت العادة، بعد أن صار كهلاً وراح يسترجع ما حدث في حياته قبل عقود من الزمن. ونجد فيها ذاتية صادقة بمعنيين: ملازمتها لإحساسات الكاتب لحظة تدوينها، ومعاصرتها للحدث حين وقوعه. وتوفر لنا المذكرات حالة فريدة للإطلاع على رسائل حب متبادلة بين عاشقين في زمن الحب العذري، لا نجد مثيلاً لها في الأدب العربي، ربما باستثناء رسائل جبران إلى مي زيادة، ورسائل غسان كنفاني المبتورة إلى غادة

---

* **المصدر**: *Jerusalem Quarterly File*, no. 17, February 2003, pp. 19-40.

** أستاذ مشارك في علم الاجتماع في جامعة بير زيت، ومدير مؤسسة الدراسات المقدسية (القدس).

(1) جرى إعداد يوميات خليل السكاكيني للنشر في ثمانية مجلدات. وقد صدر المجلد الأول في أوائل هذه السنة بشكل مشترك بين مركز خليل السكاكيني في رام الله ومؤسسة الدراسات المقدسية في القدس.

السمان.

خليل السكاكيني سنة ١٩٠٦، وكان في سن الثامنة والعشرين، عشية سفره إلى نيويورك.
المصدر: أرشيف مركز خليل السكاكيني.
المصور: ستوديو خليل رعد، القدس.

يتناول معظم مادة المجلد الأول الفترة التي أمضاها خليل في نيويورك (1907 – 1908) وعودته إلى القدس عشية إعلان الدستور العثماني. وتشكل المداخل المتعلقة بإقامته بأميركا جانباً صغيراً، لكنه مهم، من اليوميات الكاملة؛ إذ إنها تقع في فترة التكوين لتطوره الفكري عندما كان في أواسط العشرينات من العمر. وهي تغطي فترة اختلاطه بـ "المثقفين السوريين" (المقصود من بلاد الشام) في المهجر بنيويورك، وعمله في الجريدة الأدبية "الجامعة"، إضافة إلى فترة عمله القصيرة في مصنع للورق في ولاية مين الشمالية. كما تضم فترة غرامه العاصف بزوجة المستقبل سلطانة، وتتحدث عن غُصص الفراق التي عاناها إذ خلفها في القدس ومضى إلى مهجره.

شهرة السكاكيني تقوم على أنه كاتب ومفكر مقدسي، وتربوي تقدمي، ومفكر حر يقف والمؤسسة الدينية على طرفي نقيض. وتعدّ يومياته، في تقدير ناقد أدبي متميز، إيذاناً بدخول الأدب الفلسطيني مرحلة الحداثة.[2] لقد كان منهجه في التدريس، الذي طبقه في المدرسة الدستورية التي أنشأها قبل الحرب العالمية الأولى، ثورياً بالنسبة إلى كل معاصريه تقريباً. فقد ألغى العقوبة البدنية للطلبة بوصفها "بربرية وتعود إلى القرون الوسطى"، واستبدل بالامتحانات تقويماً ذاتياً يقوم به الطلبة والمعلمون. وطلب من المعلمين ألاّ يسجلوا أسماء الطلبة الذين يتغيبون. كان للطلبة الحرية في مغادرة المدرسة إن هم شعروا بالملل؛ وقد أحسّ أن هذا الإجراء يرغم المدرّس على أن يكون مجدداً وممتعاً كي يحافظ على اهتمام الطلبة.[3] كل هذا أنجزه السكاكيني في

(2) في حديث مع زكريا محمد، كانون الثاني/يناير 2003.

(3) عبد الحميد ياسين (وآخرون)، "ذكرى السكاكيني" (القدس: المكتبة العصرية، 1957)، ص 88 – 89. للمزيد بشأن منهجه التعليمي أنظر: يوسف أيوب حداد، "خليل السكاكيني: حياته وأفكاره، وتراثه"، "الصوت" (الناصرة)، 1985، ص 223 – 227.

أوائل العشرينات. وعلى الرغم من نقده الصارم لنظام التعليم السائد في ذلك الزمن فقد كان ناجحاً جداً كمصلح تعليمي وإداري، إذ عينه العثمانيون فالإنكليز مفتشاً على المدارس في فلسطين. وقد استطاع عن طريق منهجه المبتكر في تعليم اللغة العربية، الذي نشره من خلال سلسلة "الجديد" التي نالت ذيوعاً كبيراً، وعن طريق مقالاته الصحافية، أن يخرج بلغة جديدة للكتابة تتميز برشاقتها ودقتها وحداثتها، وتلائم الجيل الجديد من الفلسطينيين. ولقي هذا الجهد التقدير إذ اختير السكاكيني سنة 1948 لعضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة.

لم نكن نعرف عن حياة السكاكيني الخاصة قبل نشر مذكراته إلاّ القليل: أنه كان أديباً غريب الأطوار، وأنه يحب أن يتمتع بكل ما هو فائق من طيبات الحياة. لم يحتو كتاب "كذا أنا يا دنيا" (1954)، الذي نشر بعيد وفاته، إلاّ على مختارات محدودة من مذكراته انتقتها ابنته هالة السكاكيني (توفيت سنة 2002). فالكتاب يركز على حياته ككاتب مقالة ميال إلى فلسفة نيتشه، لكنه يخفي عمداً توجهاته المعادية لرجال الدين. لقد حالت شكوكه ونزعته الإنسانية الشاملة دون التحاقه بأي حزب سياسي طوال حياته، اللهم إلاّ مشاركته في تأسيس "حزب الصعاليك"، إذ كانت مجموعة من الأصدقاء تلتقي في مقهى بهذا الاسم يقع على مقربة من باب الخليل في البلدة القديمة.[4] كانت توجهاته المعادية لرجال الدين، وتوجهاته المخالفة للدين في وقت لاحق، تستفز مجتمعه المحافظ الضيق، وهي مستفزة حتى بمعايير زمننا الحاضر. وقد أخفت ابنته التي حررت المجموعة السابقة من المختارات، في كتاب "كذا أنا يا دنيا"، هذه النزعات التي تبدو واضحة جداً في اليوميات الكاملة. فمثلاً، من المعروف على نطاق واسع أنه خاض معركة طويلة ضد الكنيسة الأورثوذكسية، لكن السبب يعزى عادة إلى نضاله في سبيل تعريب الكنيسة ومحاربة السيطرة اليونانية عليها. إلاّ إن ما هو غير معروف هو موقفه الإلحادي الواضح، إذ دعا إلى استبدال صلاة الرب بأبيات وثنية للشاعر الجاهلي امرئ القيس.[5] كان يجد الصلوات مملة، ومضيعة للوقت. وربما كان المفكر العربي الوحيد الذي عادى التناسل بشكل معلن؛ فقد قال: "لا أزال مكباً على كتب الفلسفة أطالعها بعناية عظيمة أستعين بها

والد خليل في منجرته في البلدة القديمة. القدس، ١٨٨٢.
المصدر: أرشيف عائلة السكاكيني.

(4) حداد، مصدر سبق ذكره، ص 69 – 71.

(5) إسحق موسى الحسيني، "خليل السكاكيني، الأديب المجدِّد" (القدس: مركز الدراسات الإسلامية، 9891)، ص 60 – 63.

سلطانة، القدس ١٩٠٦، حين بدأ خليل يتودد إليها.
المصدر: أرشيف عائلة السكاكيني.

على وضع رسالتي (تعالوا ننقرض)."[6] في سنة 1932 اقترح أن يهجر أبناء وطنه الدين الرسمي، وأن يعتنقوا النرجسية الطقسية كنوع من العبادة، "... فهذا نوع من العبادة يمكن لنا جميعاً القيام به دون أن نهدد أديانا أُخرى.. فالمسيح قد قال: (إن لم تستطع أن تحب جارك أو أخاك الذي تراه، فكيف تحب الله الذي لا تراه). ولكنني أنا (خليل السكاكيني) أقول لك: (إذا لم تستطع أن تحب نفسك، فلن تستطيع أن تحب الله أو أي أحد آخر).."[7]

من الممكن اعتبار المجلد الأول من مذكرات السكاكيني شاهداً مهماً على بداية الحب الرومانسي في العالم العربي. وقع خليل في غرام سلطانة عبده قبل أقل من عام على رحيله إلى أميركا. ولدت سلطانة سنة 1888 في البلدة القديمة، وكانت تمتّ إليه بصلة قرابة بعيدة.[8] وقد نشأ كلاهما في حارة النصارى، وهما ينتميان إلى أسرتين عربيتين أورثوذكسيتين. كان والد خليل نجاراً ماهراً، ومن وجوه الطائفة الأورثوذكسية في القدس. وكان والد سلطانة، نقولا سليم عبده (أبو أديب)، أيضاً من الشخصيات المعروفة في البلدة القديمة، وقد عينته البطريركية مشرفاً على الحجاج خلال موسمي الفصح والميلاد، يرعى شؤون سكنهم ورفادتهم وحاجاتهم الأُخرى. وكان، بحسب ما تقول حفيدته هالة السكاكيني، متحرر الذهن قياساً بعصره، إذ أرسل ابنتيه إلى التعليم الداخلي في مدرسة الفرندز في رام الله، وكانت تقع على مسيرة ثلاث ساعات على البغال إلى الشمال من القدس.[9] ونستطيع معرفة حقيقة علاقة هذا الرجل بابنته من خلال رسالة مؤرخة في سنة 1906 كتبها إلى أخت سلطانة، أماليا، عقب زواجها بطبيب نابلسي:

ابنتي العزيزة،

منذ أول يوم أنعم الله عليّ بك بدأت أفكر في الابتهاج بيوم عرسك شأن سائر الآباء، فلمّا جاء ذلك اليوم وزففناك إلى العزيز عريسك تألمت وتأثرت وبكيت كثيراً لأنك خرجت من منزلي، لأنك صرت لآخر، لأنك فجأة وفي دقيقة واحدة وبمطلق رضاك واختيارك حملت اسماً غير اسمي وأشركت رجلاً آخر في حبي. فعقلي أيتها العزيزة يعلم ما يجب أن يكون لزوجك الآن من الحقوق ومن التقدم عليّ وعلى كل إنسان آخر. سأكون في الدرجة الثانية بعد زوجك. لا بأس، ولكن

(6) خليل السكاكيني، "كذا أنا يا دنيا" (القدس: المطبعة التجارية، 1955)، ص 323.

(7) الحسيني، مصدر سبق ذكره، ص 61.

(8) إلى حين توفر اليوميات فإن المصدر المتاح الوحيد كان مذكرات ابنته هالة السكاكيني، "أنا والقدس: سجل شخصي" (عمان: المطبعة الاقتصادية، 1987)، ص 1 – 10.

(9) المصدر نفسه، ص 3.

قلبي يستحق شيئاً من المراعاة. يجب أن تمهليني قليلاً من الزمن حتى يألف الوالد فراق ابنته وحتى أتعوّد هذا الفراغ الذي أحدثه زواجك في فؤادي، فإن 20 سنة لا تمحى في عشرين يوماً.[10]

ولا بد أن نقولا عبده كان منفتحاً جداً بمقاييس عصره، حتى لقد سمح لابنتيه بأن يصحبا الشبان الطامحين إلى الزواج بهما في العلن ومن دون رفقة أو رقابة.[11]

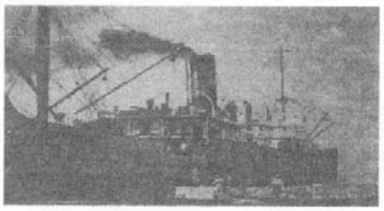

مسافراً في الدرجة الثالثة. وعلى ظهر المركب: غادر خليل يافا في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٧ إلى نيويورك عبر مارسيليا.
المصدر: *Frank Scholten, Jaffa the Beautiful, Leiden, 1931.*

بعد التخرج من المدرسة الثانوية مباشرة، في سنة 1903، بدأت سلطانة تعمل مدرّسة في مدرسة عربية أورثوذكسية في البلدة القديمة، ثم في مدرسة القديسة مريم للبنات سنة 1905، وهي مدرسة أنغليكانية. وهناك عرفها خليل عندما عهد إليه بتدريبها على تدريس اللغة العربية والأدب. كان خليل نفسه مدير مدرسة، تلقى علومه على يد المعلم المشهور بتعليم الأدب العربي نخلة زريق (1861 – 1921).

عندما بدأ خليل يتودد إلى سلطانة في سنة 1907 كان في التاسعة والعشرين من عمره، وكانت هي في التاسعة عشرة. في تلك الفترة كان لكل من عائلتي عبده والسكاكيني بيت صيفي خارج أسوار القدس، أسوة بكثير من العائلات الميسورة التي كانت تتوق إلى الفرار من جو الأحياء المزدحمة الخانق. كان بيت السكاكيني يقع في المصرارة، أمّا بيت عبده الصيفي فيقع قرب محطة سكة الحديد وكان يعرف باسم الحريرية، أي مصنع الحرير، إذ كان يوجد فيه مصنع حرير قبل أن يسكنوه. (وبعد قرن تقريباً غدا "الحريرية" مسرح "الخان" الحالي في القدس الغربية).[12]

ولمّا كان خليل وسلطانة منغمسين في أنشطة الطائفة الأورثوذكسية فقد كان ثمة فرص كثيرة للقاء. في تلك الفترة تصادقت سلطانة مع ميليا، أخت خليل الكبرى، وأصبحت لذلك كثيرة التردد على منزلها. وكان خليل يرافقها في المساء وهي عائدة إلى بيتها، في البداية بصحبة ميليا أيضاً، ثم بعد ذلك وحده. وفي فترة لاحقة كانا يتنزهان مسافات أطول، أو يركبان الحمير إلى الريف، وغالباً إلى عين كارم أو جبل الزيتون. وفي إحدى تلك النزهات عبّر خليل عن حبه لسلطانة. ومن حسن حظنا أن هذه اللحظة سُجِّلت لتطلع عليها الأجيال اللاحقة. يعبر خليل عن حبه هنا بعبارات رومانسية جديدة لم تكن معروفة تقريباً في تلك الفترة – في الأدب الفلسطيني أو حتى

(10) "نصيحة أب لابنته"، في: هالة السكاكيني، "الأرشيف الشخصي" (القدس: المطبعة التجارية، 2000)، ص 23 – 24.

(11) كنت بلغت مرحلة متقدمة في كتابة هذا المقال عندما عرفت معلومة بدا لي أنها تحمل كشفاً مهماً. فقد ذكر لي ابن عمي الياس أن أخت نقولا عبده، هيلانة، كانت متزوجة الياس تماري، جدي. وهذا يجعل سلطانة عبده بنت شقيق جدتي (لأبي) هيلانة المباشرة.

(12) هالة السكاكيني، "الأرشيف الشخصي"، مصدر سبق ذكره، ص 4.

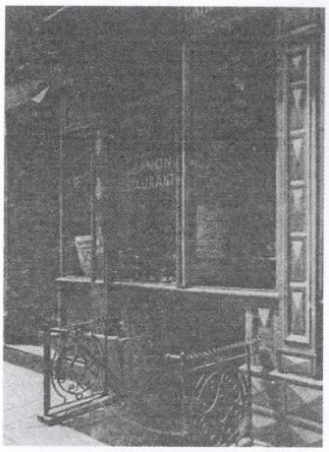

"حصلتُ على قطعة خبزٍ مدهونة بالعسل والطحينة بخمسة وعشرين سنتاً. وهذه كانت فطوري." المطعم اللبناني في "سورية الصغيرة" في لوور وست سايد بمانهاتن.
المصدر: Museum of the History of New York, Abbott Files.

العربي. كتب بعد الحدث بأيام مسـرّاً إلى صـديقه داود صيداوي في رسالة:

يوم الخميس الواقع في 1907/10/3 أخذتها [سـلطانة] مع أختي ميليا إلى قالونه، هناك تحت شـجرات الليمون جلسـنا، وكم كنت أتمنى لو كنت معنا. لا شك أنك كنت تشاطرني سروري وطربي، بل كنت ترى من علائم الوجوه ولمعان العيون وسائر حركاتنا وسكناتنا ما يفصح عمّا في القلوب ويغني عن التصريح.

ولمّا آذنت الشـمس بالمغيب ركبنا حميرنا ورجعنا، ولعل الجو هناك يعبق إلى اليوم بأنفاس حبنا، مشـيت إلى جانبها فجعل حمارها يتعثر فخشـيت أن يقع فأخذت بلجامه وقدته كل الطريق. وفي المسـاء جاءت عندنا وسـهرت وحدها، ثم أوصلتها إلى البيت وحدي، ووعدتها في الطريق أن أكتب لها. وفي الغد قمت كما قال الشـاعر ذا شـجىً وترنم فلم أتمالك أن أخذت القلم وكتبت لها رسالة أفرغت فيها كل عواطفي، ثم ذهبت إلى المدرسة فخرجت إليّ، ووقفنا في الباب، وسلمتها الرسالة يداً بيد، وفي وجهي رسـالة أُخرى. وعند الأصـيل أخذتُ أختي ميليا ومررنا بها، ولمّا وقع نظري عليها شـعرت بمجارٍ كهربائية انتفض لها كل جسـمي. أخذتهما إلى أكمة على طريق رام الله وجلسـنا على صخر هناك وفي وجهها وعينيها ما أشعرني بالرضى والقبول. وهكذا في اليوم الثاني والثالث، نخرج عند الأصيل للتنزه وفي المساء نسهر إمّا عندنا وإمّا عندهم. وأمس جاءتني رسـالة منها تهديني فيها محبتها وتعدني بالكتابة في القريب العاجل.[13]

بعد هذا اللقاء مباشـرة هيمن على خليل تأنيب الضـمير الذي طالما أعرب عنه في رسـائله اللاحقة؛ فهو لا يسـتحقها، وهو أناني إذ يريدها لنفسـه، فلا بد من أن يكون هناك آخرون يستحقون حبها أكثر منه:

ولكن، مع كل ذلك لا أزال أشـعر أني آثرت نفسـي على أصـدقائي في ودادهم لها.... فبربك يا داود أسعفني برأيك وأفتني بما عندك.... ماذا

(13) خليل السكاكيني، مصدر سبق ذكره، ص 5 – 6.

"في حلم خليل اللاحق تصبح نيويورك بوتقة الوجود الزائل." مانهاتن السكاكيني ـ "سورية الصغيرة" في لوور وست سايد، الشارع الغربي بين شارعي ركتور وموريس. المصدر: Museum of the History of New York, Abbott File 159.

أعمل لكي لا أخرج عن إخلاصي لهم ولا أوصم عندهم بمحبة الذات؟[14]

لم تكن شكوك خليل في ذاته ناجمة عن احتقاره للذات كما قد يبدو أول وهلة، على الرغم من أن هذا العنصر كان موجوداً في شخصيته بقدر لا يستهان به، لكنْ نتيجة توتر أحس به جرّاء بعض التردد الذي بدا من سلطانة. كان ميالاً إلى تبيّن مشاعرها من خلال أبسط الإيماءات، وكانت ردة فعله مبالغاً فيها إزاء صمتها الذي كان يرى فيه علامة على البرود تجاهه. ولمّا لم يكن لدينا سوى قرائن مباشرة قليلة بشأن ما كان يدور في خلدها إزاء خطواته، فليس في وسعنا إلاّ أن نحدس بشأن ما كانت تفكر فيه، وذلك من خلال أقواله هو أو إشارته إلى أقوال يذكر أنها صدرت عنها. لكن سلطانة لم تكن صامتة كلياً. فقد وصلنا القليل من الرسائل التي كتبتها إلى خليل عندما كان يعيش في بروكلين بنيويورك وهي ذات مغزى مهم، ولدينا أيضاً ذكريات هالة عنها. تظهر سلطانة من خلال هذه الرسائل كشخصية ذكية مفكرة – مع روح دعابة، قد لا تشمل القدرة الفلسفية التي امتاز بها خليل، لكنها بالتأكيد أكثر مرحاً وأشد لذعاً.

ويبدو أن ترددها في مبادلة خليل عواطفه هو، في الأساس، نتيجة الغموض الذي وسم العلاقة بطابعه. كان يكبرها بعشرة أعوام، ولم يكن مستقبله المادي واضح المعالم،[15] وكان يوشك على القيام برحلة لم يكن أي منهما يعرف مدتها، وربما حتى هدفها.[16] وكلما اشتد في طلب تعهد منها ازدادت ردة فعلها غموضاً. كان هذا، فيما أعتقد، سبباً رئيسياً لاستمرار التوتر الذي طبع علاقتهما في فترة البعد، وسيطر على مراسلاتهما على مدى عام كامل.

في بلاد الوجبات السريعة

كان السكاكيني نفسه شديد البعد عن التقليدية بالنسبة إلى عصره. وعلى الرغم من أنه كان يتزيا بالزي التقليدي إلى حد كبير فقد كان لاهياً، يغني ويرقص ويدخن

(14) المصدر نفسه.

(15) وجدنا مثلاً أنه اقترض منها مالاً لرحلته. وفي مناسبات قليلة أُخرى أعطت هي بعض الجنيهات لوالدته عندما سمعت أنه وأخاه يوسف، الذي كان بائعاً متجولاً في فيلادلفيا، لا يتمكنان من إرسال أي مال إليها.

(16) الموضوعات البيوغرافية عن خليل السكاكيني التي نشرها مركز خليل السكاكيني في رام الله تشير إلى أنه سافر بهدف كسب مبلغ كبير من المال بالطريقة نفسها التي كسب بها المهاجرون من سورية الكبرى المال: بالتجارة والبيع. ولمّا وجد نفسه في أميركا فكر في منصب تدريسي في جامعة كولومبيا. على أنه بخلاف الدروس الخصوصية التي أعطاها لطلاب اللغة العربية في الجامعة، والكتابات التي كان ينقحها، لم يلتحق قط بأي وظيفة جامعية.

بشراهة (الغليون والنارجيلة)، وكان لا ينقطع عن العزف على الكمان. كان يعدّ نفسه شهوانياً، كما وصف نفسه في اليوميات. أحب الموسيقى والشعر، وكان يكتب الشعر كثيراً، لكن من دون أن يحلّق في سماء الإجادة.[17] كان يستمتع، في المقام الأول، بالصحبة الحسنة ومجالس الشراب الطويلة، وكثيراً ما كان يتبارى في المصارعة مع أقرانه ومعارفه. وكانت رياضته المفضلة أن يقنع عدة رجال بمهاجمته معاً ثم يطرحهم أرضاً.[18] كان عظيم الإعجاب بجسمه، وينفق الوقت الطويل في الاغتسال.

"الشعب السوري هنا على الإجمال منحط جداً في أخلاقه ومبادئه."
المصدر: يوميات السكاكيني (١٩٠٧).
الصورة: "الأجانب في نيويورك ـ الجالية السورية". تصوير و. بنغوت، ١٨٩٥. بإذن من جوناثان فريدلاندر، في:
A Community of Many Worlds: Arab Americans in New York City, *A Historical Museum of New York Publications, 2002.*

على أنه يبدو في مذكراته ذا توجهات جنسية غامضة ومكبوتة. وتزخر فقرات يومياته بتجريح الذات، وبنوبات الغم واليأس. ولعل تعلقه المفرط بالاستحمام بالماء البارد (صيفاً وشتاء)، وابتعاده عن المناسبات الاجتماعية، يصلان إلى درجة جلد الذات. كانت تستغرقه، وحتى نهاية عمره، ثلاث علاقات حب ومودة عظمى. وقد انتهت العلاقات الثلاث بموت مبكر شهده في حياته: صديقه ورفيق صباه داود صيداوي، وخطيبته التي أصبحت زوجته سلطانة عبده، وولده الوحيد سري الذي توفي ولمّا يتخطّ الثانية والأربعين.

أبحر خليل السكاكيني إلى نيويورك في 22 تشرين الأول/أكتوبر 1907 من يافا، وعاد إلى القدس في 10 أيلول/سبتمبر 1908. استمرت فترة اغترابه الأميركي أقل من عام، وعلى الرغم من أنه كان كثير الأسفار بعد ذلك فإنه لم يعد إلى أميركا قط. كان عليه أن يستدين من داود وسلطانة، ومن غيرهما، للقيام بنفقات الرحلة. ولذا كان يسافر في الدرجة الثالثة، بل – وفي جزء من الرحلة – على ظهر المركب. كان السفر

(17) هذا هو رأي إسحق موسى الحسيني، مصدر سبق ذكره.
(18) منصور فهمي، "محمد كرد علي وخليل السكاكيني" في: عبد الحميد ياسين (وآخرون)، مصدر سبق ذكره، ص 108.

في تلك الأيام طويلاً ومضنياً (من عشرة أيام إلى أسبوعين من مرسيليا إلى نيويورك).[19]

وعندما وصل بعث بهذه الأبيات إلى أخته ميليا:[20]

وصلت بعد التعب إلى بلاد الذهب
تقلني باخرة كقلبي المضطرب
تلعب بالركاب لكن يا له من لعب
ولم أجد بين الجميع أحداً من مشربي
وهكذا الطعام فيها لم يكن من مذهبي
فكم تقززت وكم شعرت أن قد دير بي
كأنه لم يكفني مرارة التغرب

سادت أميركا سنة وصوله إليها (1908) أزمة اقتصادية خانقة. وكما كتب إلى صديقه داود في إحدى أُوَل رسائله:

> *لا يستطيع أحد أن يطلب شغلاً من أحد. أبناء أخت السيد رفله [رفيق خليل في السكن في بروكلين]، وهم السادات ملوك، خسروا في الأسبوع الماضي أكثر من ثلاثة عشر ألف ريال [دولار].... فكل يوم نسمع بإفلاس الشركة الفلانية والتاجر الفلاني.... بالأمس قال لي الصديق فرح أنطون: "لو استشرتني قبل مجيئك إلى هذه البلاد لكنت نصحتك أن لا تجيء".*[21]

عندما وصل إلى نيويورك، كان تعويله على أخيه يوسف، وهو بائع متجول في فيلادلفيا. لكن ظروف التدهور الاقتصادي في الولايات المتحدة في تلك السنة شاءت له أن يجد يوسف في وضع صعب، ومحتاجاً هو نفسه إلى المساعدة. وقد سكن في جادة أتلانتيك في بروكلين ("الحي السوري") بمساعدة معارف من القدس. وقد آذته الوحدة وضيق ذات اليد منذ يوم حطّ رحاله. وتصف رسالة بعث بها إلى داود في خضم احتفالات السنة الجديدة (1908)، أجواء هذه الأشهر الأولى في نيويورك:

> *إقرأ واضحك... كنت قبلاً أبكي من الحالة التي وصلت إليها واليوم أضحك. ذكرت لكم قبلاً أني وجدت بعد اللتيّا والتي ثلاثة تلاميذ يدخلني منهم أربعة ريالات في الأسبوع، هذا إذا حضروا كلهم وذلك*

(19) يوميات خليل السكاكيني (فيما بعد: ي خ س)، رسالة إلى سلطانة، لندن، 22 آب/أغسطس 1908.
(20) المصدر نفسه، رسالة إلى ميليا، نيويورك، 14 تشرين الثاني/نوفمبر 1907.
(21) المصدر نفسه، رسالة إلى داود صيداوي، نيويورك، 1 كانون الثاني/يناير 1908. هذه الرسالة بالذات نُشرت أيضاً في "كذا أنا يا دنيا"، مصدر سبق ذكره، ص 16.

نادر لأنه في كل درس لا بد أن يغيب واحد منهم فأخسر بغيابه ريالاً. بهذه الريالات الأربعة آكل وأغسل ثيابي وأدفع أجرة غرفتي وأقاسم فيها بعض أبنائنا من القدس. يا ليتنا بقينا على ذلك، فقد توقف التلاميذ الآن عن الدرس بسبب عطلة عيد الميلاد وقد مر عليّ أسبوعان لم يدخلني شيء. أرسلت ثيابي إلى الغسالة منذ خمسة عشر يوماً ولم أستطع أن أدفع لها الأجرة فتركت الثياب عندها وليس عندي إلاّ الثياب التي عليّ، وقبل يومين التزمت أن أغسل جواربي ومناديلي بيدي.

كل ذلك سهل، ولكن أمس، آخر أيام السنة، لم يكن في جيبي إلاّ عشرة سنتات، فذهبت مع نقولا البرغوث إلى السوق واشتريت خبزاً بتسعة سنتات ورجعنا إلى البيت فأكلناه مع الشاي، وفي المساء بينما كانت أميركا تقيم الاحتفالات الشائقة لوداع السنة الماضية واستقبال السنة الجديدة جلسنا حول مائدة نلعب بالورق ونحن لا نعي، ثم قمنا إلى فراشنا ونمنا على وجوهنا.

خطر لي أن أستقرض بعض الريالات من رفله الحمصي فذهبت إليه متردداً ولمّا وقفت أمامه أخذتني عزة النفس فلم أجسر أن أفاتحه بالأمر فانصرفت عنه وأنا لا أعرف ماذا أعمل. كتبت إلى أخي يوسف في فيلادلفيا، والظاهر أنه في ضيق شديد فلم يجب. فعولت أن أجرب الصيام وقلت أحسن شيء أن ألازم الفراش في ليلي ونهاري. جاءت الساعة العاشرة صباحاً وأنا لا أزال في فراشي، فجاءني حنا فراج وبقية الأولاد وقالوا: "قم لننذهب نتجول في الطرق فاليوم عيد عظيم عند الأميركان"، فاعتذرت. فذهبوا وحدهم وبقي عندي نقولا البرغوث. فلمّا خلا المكان قمت ولبست ثيابي وتناولت سنتاً من جيبي وكلفته أن يشتري لنا رغيفاً نكسر به الصفراء كما يقولون. ولمّا رجع قسمت الرغيف بيني وبينه ولكنه لم يضع لقمة في فمه حتى خنقته العبرات فترك الأكل وخرج، فناديته وأخذت أشجعه وأطيب خاطره، فقال:

صورة سلطانة التي حملها خليل معه إلى نيويورك.
"... استبدلت بقلبك الرقيق قلباً أصلب من الفولاذ."
المصدر: يوميات السكاكيني.
مصدر الصورة: أرشيف عائلة السكاكيني

"لســـت أبكي على نفســـي ولكن أبكـي عليك أنت يا خليل لا تجد ما تأكله".

من عاش مثلي منعماً مرفهاً لا يحســـب للعواقب حســـاباً ولا يعرف للـدرهم قيمـة لا ينجع فيـه إلاّ مثـل هـذه الـدروس. ولم أكن لأحتملها لو وجدت لي مخرجاً منها ولكن لا مخرج. أنا هنا لا أعرف أحداً أقدر أن أستدين منه إلاّ رفله الحمصـي، وهذا يكفي ما استدنت منه إلى الآن. أمس حدثتني نفســـي أن أنخرط في ســـلك الجندية لولا أنها تمتد إلى ثلاث سنوات لا يستطيع المنخرط في سلكها أن ينسحب منها قبل وفاء هذه المدة.[22]

وهذه الفقرة الأخيرة بشـأن المال، إضـافة إلى إشـارته إلى أنه نشـأ منعماً مرفهاً، لا بد من أن تكونا أثارتا دهشة داود إذ إن غرض الرحلة أصلاً كان جمع المال لسداد الديون وفتح بيت تمهيداً لاقترانه بسلطانة.

وقد لخص خليل موقفه من نيويورك والولايات المتحدة في رســـالة بعث بها إلى سلطانة في تموز/يوليو 1908:

(22) المصدر نفسه.

تركت رمفورد فولز حيث أقمت شهراً حسبته دهراً وجئت إلى بوستن فاستقبلني مخائيل الصائغ وابن عمك بندلي. الخواجا مخائيل يشتغل نصف نهار فلا يحصل أكثر من ثلاثة أرباع الريال وابن عمك يخرج للبيع ولكنه لا يكاد يحصل أجرة طريقه ولست أظن أنه ينجح ولو أقام في هذه البلاد العمر كله وكدت أحثه على الرجوع إلى البلاد لولا الخوف من التعرض لما لا يعنيني على أنه قال لي أنه صابر

بضعة أشهر فإذا تحسنت الأحوال بقي وإلاّ رجع. في اليوم الثاني زرت الخواجات سنونو، ذهبا معي نتفقد معاهد بوستن وآثارها الجميلة، أفضى بنا الطواف إلى الحديقة العمومية فجلسنا على مقعد هناك أمام بحيرة صغيرة. كانت القوارب تروح وتجيء فيها، فشرد بي الفكر إلى أرتاس، وتذكرتك، ثم ذهبنا للغداء، وكان ملوخية مع رز، بعد الغداء عبأوا لي أركيلة وجلست بجانب النافذة أدخن فاستولى عليّ الذهول وتجردت من حسي وهمت في عالم الخيال وحلقت في جو التصورات فتذكرتك وتذكرت داود فلم أملك دموعي. في المساء ودعتهم وودعت مخائيل وبندلي، وكانت امرأة مخائيل على وشك الولادة، وركبت القطار نحو ساعة ثم ركبت الباخرة وجئت إلى نيويورك. لا أسأل أحداً إلاّ نصح لي أن أرجع إلى بلادي فهذه البلاد ليست لمثلي، ولكن كلما هممت بالرجوع تذكرتك وتذكرت وعدي لك أن أجاهد في البلوغ إلى أعلى درجات المجد، ثم أرجع إليك فآخذك مع ميليا ونزور معاً أميركا. بالحقيقة يا حبيبتي إن أميركا تستحق الفرجة ولكن لا تصلح لأن تكون وطناً، لأنها بلاد عمل لا بلاد سرور، فكيف أرجع إليك الآن خائباً. ولكن بقي لي أمل واحد وهو أن أرجع وأعالج حظي في بلادي، وأرجو أن تكون الأحوال مساعدة، ولا سيما بعد أن منح السلطان الدستور للبلاد....[23]

الصورة الوحيدة الباقية من صور خليل في أميركا. وكانت أخذت له في آخر يوم من عمله في المصنع في رمفورد، فولن، ولاية مين، في تموز/يوليو ١٩٠٨. المصدر: أرشيف عائلة السكاكيني.

هيمنت على إقامة السكاكيني ببروكلين علاقته بفرح أنطون، محرر الجريدة السورية المهجرية "الجامعة"، وشغله بالترجمة الذي أداه للبحاثة المستشرق في جامعة كولومبيا البروفسور ريتشارد غوتهيل.[24] وكان يكسب بعض المال أيضاً بتعليم العربية للطلبة الأميركيين (ومعظمهم من جامعة كولومبيا) ولزوجات وبنات أصحاب الحوانيت والتجار العرب اللائي كن أميات في لغتهن الأم. وكان يكتب المقالات ويقوم بالتحرير ومراجعة

(23) ي خ س، رسالة إلى سلطانة، نيويورك ورمفورد فولن، 27 تموز/يوليو 1908.

(24) ريتشارد ج. هـ. غوتهيل (1862 – 1936) أول رئيس لدراسات الأدب التوراتي واللغات السامية في جامعة كولومبيا. في عهده تم إدخال تدريس عدد كثير من اللغات السامية والمساقات الأُخرى، وتوسيع المكتبة بشكل كبير. كانت علاقته بالسكاكيني جيدة، لكن كما يبدو من يوميات السكاكيني، فإن غوتهيل لم يكن يعي أزمة السكاكيني المالية الخانقة. وقد افترض، مخطئاً، أن الدافع وراء قيام السكاكيني بالعمل معه على المخطوطات العربية هو حب السكاكيني للموضوع. وحاول مساعدته ذات مرة في بيع بطاقات صور للأرض المقدسة للأساتذة الآخرين في كولومبيا (ي خ س، www.Columbia.edu، و«Jewish Studies at Columbia Before Salo Baron»)، وفي النهاية دفع للسكاكيني خمسة وعشرين دولاراً لقاء عمله، لكن بعد أن حثه هذا الأخير.

البروفات المطبعية لفرح أنطون. ومع اكتسابه المزيد من الثقة انخرط في الدفاع عن فرح أنطون ضد خصومه.

ينتمي السكاكيني إلى الموجة الأولى من المهاجرين العرب إلى أميركا، وقد بدأت في عقد 1870 وتوقفت بسبب موجة العداء الموجهة ضد الفوضوية في عقد 1920. وأسوة بمعظم أبناء وطنه من الشرق العربي كان يحمل الجنسية العثمانية ويقدم نفسه كسوري، وأحياناً كفلسطيني. قبل الحرب العالمية الأولى استقرت الجالية السورية (أي اللبنانيون والسوريون والفلسطينيون) بالمنطقة التي صارت تعرف بـ "سورية الصغيرة" في مانهاتن، في لوور وست سايد. (والمفارقة هي أن المنطقة أصبحت سنة 1970 موقعاً لـ "مركز التجارة العالمي"). كانت تلك العائلات تعيش في معظمها حول شارع واشنطن وتعمل في صناعة النسيج. وبينما أحوال هذه الجالية تتحسن وأموالها تزداد، أصبح عدد من أفرادها يعمل في المصارف وفي صناعة النشر واستيراد الكتان والأربطة والملابس الداخلية.[25] وقد بدّلوا سكنهم من مانهاتن إلى جادة أتلانتك في بروكلين. وهناك أسسوا حي ساوث فيري الذي ضم أجزاء من بروكلين هايتس وكوبل هيل.

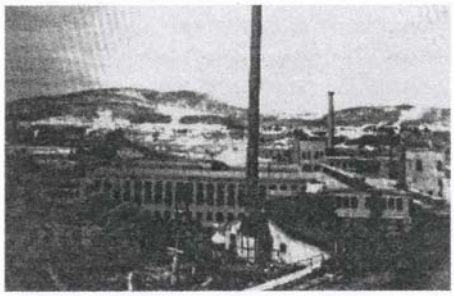

مصنع الورق في رمفورد فولز حيث عمل السكاكيني عدة أسابيع في سنة ١٩٠٨: "أي فضل لهذه المدنية، وأي فرق بينكم وبين العبيد الأرقاء في عصور الهمجية" ("كذا أنا يا دنيا"، ص ٣٢).
المصدر: Downtown Rumford, 1906; Rumford Historical Society.

كان كثيرون من هؤلاء المهاجرين، مثل السكاكيني، يذهبون كل يوم إلى أعمالهم من مانهاتن بركوب العبّارة من وايتهول ستريت إلى جادة أتلانتك.[26] إن التمثيل الجغرافي لتحركات خليل في أميركا كما نستشفه من يومياته ورسائله غامض ويشبه الألغاز، كما أنه يتسم بالسذاجة. لقد سكن في شارع، لم يعرفه، في بروكلين مملوء بالمقاهي والمطاعم "السورية" واليونانية. (وتبين لاحقاً أن هذا إنما كان جادة أتلانتك). وكان يركب يومياً القطار أو المركب إلى نيويورك – يقصد مانهاتن – حيث يمضي معظم النهار إمّا في لوور وست سايد بالقرب من جامعة كولومبيا وإمّا في وسط البلد في مكاتب جريدة "الجامعة". وكثيراً ما كان يعبر الجسر [جسر بروكلين؟] مشياً في اتجاه شارع واشنطن أو "قرية غرينيتش". أحياناً، في أوائل

(25) Gotham Gazette, "History of Arab New York," an online review, 22 August 2002.

(26) Ibid. أنظر أيضاً:

Philip Kurata, "Arab Americans of New York," *Washington File*, June 25, 2002.

كتب كوراتا: "بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية فإن من الدوافع المهمة للهجرة العربية في أوائل القرن العشرين إقرار قانون عثماني في سنة 1908 يجعل الخدمة العسكرية إجبارية على المسيحيين واليهود، وكانوا قبل ذلك معفين منها... أصبحت لوور وست سايد (المستعمرة الأم) لكل التجمعات العربية المهاجرة التي استقرت بعدئذ بالولايات المتحدة."

سـنة 1908، بدأ السـكاكيني يسـتخدم مواصـلات الأنفاق بعد أن تم حفر نفق يربط بروكلين بمانهاتن.

عندما انتقل السـكاكيني إلى ولاية مين أعطى عائلته الانطباع بأن المصـنع كان يقع بشـكل ما خارج مدينة نيويورك. وإيماءاته إلى معارف في ميشـيغان وشـيكاغو البعيدتين كانت تتم باستخدام تعبير "داخل البلاد". وكان يسكن رمفورد فولز بحسب تعبيره "الفرنسـيون" و"الفرنسـيات" في الغالب – وكثيرون منهم لا يتقنون الإنكليزية. ولم يشر السكاكيني إلى من يكون أولئك الفرنسيون، ويبدو أنه كان يظن أنهم مهاجرون أوروبيون لا مواطنون من كيبيك وأكاديا.

كـان خليـل، في كـل تنقلاتـه في نيويورك ونيو إنغلنـد، يتحرك في نطـاق دوائر المهاجرين العرب. وكان هؤلاء في مطلع القرن العشرين من أصحاب الحوانيت والباعة وتجار الشـنطة. وقد وجد صـحبتهم فظة وعشـرتهم مملة، واسـتمر يكتب عن توقه إلى حلقته المتنورة المثقفة في القدس:

> *الشعب السوري هنا على الإجمال منحط جداً في أخلاقه ومبادئه، ولا أحضر مجلساً من مجالسهم إلاّ كان لي صدر المحل، لا يستطيع شاب أن يجري ذكر النساء أمامي. كم أحب لو كانت لهم جمعية أدبية أرفع فيها صوتي وأدعو إلى مبادئي التي لا يحلمون بها.*
>
> *حضـرت بعض مجالس أنس فأخذت كمنجة ولعبت عليها بعض أنغامنا فجنوا بها. مساكين! ما رأيك لو ظهرت بينهم الآنسة منّانة؟ لست أبالغ إن قلت إنك لا تجد حتى بين الأميركيات من يضاهيها في الآداب والثقافة.*[27]

ظلت الثقافة الأميركية غريبة عن السـكاكيني. وأسـوة بكثير من مواطنيه في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى كان له إزاء المجتمع الأميركي موقف "هم ونحن". لم يكن لديه في ذلك الحين مفهوم أميركا البوتقة التي تنصـهر فيها الثقافات.[28] ظل كثيرون من العرب يتزيون بأزيائهم ويتبعون عاداتهم، بما في ذلك تدخين النارجيلة في المقاهي كما تظهر عدة صـور التقطت في ذلك الزمن في بروكلين، وفي "سـورية الصـغيرة".[29] كان خليل يتناول طعامه في أثناء إقامته بنيويورك في المطاعم السورية، ويشتري حاجاته من الحوانيت العربية أو اليونانية، ويقرأ الصحف العربية.

---

(27) Ibid. كيف تفكر بروكلين في مهاجريها؟ كتبت إحدى صحف نيويورك: "ليس هناك من يمثل الشرق بأفضل ما يمكن من المثابرة والقدرة مثل السوري."

(28) أنظر: Jonathan Friedlander, "Rare Sights: Images of Early Arab Immigration in New York City," in K. Benson and Philip Kayal, *A Community of Many Worlds, Arab Americans in New York City* (New York: Syracuse University Press, 2002).

(29) أنظر الصور الفوتوغرافية المرفقة بمقالة Friedlander, ibid.

كانت أحياء بروكلين باردة فظّة. ويسجل خليل خمس حالات على الأقل هوجم فيها أصدقاؤه – وفي إحداها أخوه يوسف – من جانب ما سمّاها "عصابات الشوارع الأميركية". ولم يتم رفع شكوى إلى الشرطة إلاّ في حالة واحدة، ووجدها غير متفهمة، لا بل هددت باعتقالهم جميعاً.(30)

وفي آخر فترة إقامته فقط أظهر خليل اهتماماً ضئيلاً بالثقافة الأميركية والمشهد الأدبي. فقد بدأ يقرأ "الإيفننغ ستاندارد (Evening Standard)"، ويزور متحف المتروبوليتان. وفي مناسبتين تمكن فرح أنطون من حمل خليل على مرافقته إلى المسرح في برودواي، لكن خليل وجد المسرحية الموسيقية صاخبة ورأى فيها مضيعة للوقت.

يضع ميخائيل سليمان، في دراسة له عن أوائل المثقفين العرب الذين أقاموا بأميركا، السكاكيني – وهو أكثر المربين في تلك الحقبة تحرراً – في خانة التقليديين، ولا سيما عندما يقارنه بالمفكرين الاشتراكيين مثل فرح أنطون وبالطبيعيين التولستويين مثل ميخائيل نعيمة – وكانا معاصرين لخليل في نيويورك.(31) هذا الحكم هو جزئياً انعكاس لعدم قدرة السكاكيني على الانخراط بأي شكل إيجابي في المشهد الأميركي، لكنه أيضاً يعكس ردة فعله السلبية تجاه اقتحام النساء المجال العام في الحياة. ففي زيارة قام بها السكاكيني سنة 1908 للشاطئ في جزيرة كوني مع صديقه الياس حيدر، أصيب حقاً بالصدمة والاشمئزاز لمنظر الرجال والنساء يمرحون ويلهون على الشاطئ بملابس البحر.(32)

وعلى الرغم من كره خليل للعادات الأميركية فقد كانت له نظرات ثاقبة وساخرة فيما يتعلق بالحياة اليومية. "فالأميركي يأكل في سرعة ويمشي في سرعة" – كما كتب لمجلة "السفور" (القاهرة) – "... إنهم سريعون إلى درجة أن لديهم مطاعم أسموها (الوجبة السريعة)، حيث لا ترى كراسي، إذ يأكل الزبائن واقفين. وقد يحدث أن يغادر المرء المطعم وفي فمه لقمة!"(33) ولأنه عاش وسط الباعة السوريين والأرمن فقد غدا شديد الافتتان بطريقة سلوكهم، ولا سيما بنظرتهم إلى أخلاقيات العمل التي تعكس ثقافتي عالمين مختلفين:

(30) ي خ س، أحد الفصح، 26 نيسان/أبريل 1908. وعلى الرغم من مضمون نص هذه الحادثة فإنه يبدو أن يوسف نفسه كان سكراناً ووجه كلاماً نابياً إلى الشرطة وهو يطلب منها الحماية.

(31) Michael Suleiman, «Impressions of New York City by Early Arab Immigrants,» in Benson and Kayal, op. cit., p. 44.

(32) ي خ س، 2 آب/أغسطس 1908.

(33) خليل السكاكيني، "الحياة الأميركية"، "السفور" (القاهرة)، 1918. أعيدت طباعة المقالة في خليل السكاكيني، "ما تيسر"، الجزء الأول (القدس: المكتبة العصرية، 1943)، ص 95 – 98. كذلك اقتبست في: Suleiman, op. cit.

من زار أميركا من الشـــرقيين بعد أن يكون قد زار أوروبا رأى بينهما فروقاً كثيرة منها ما نشير إليه هنا تفكهة وتبصرة:

إن الســرعة في أميركا تكاد تكون خمســة أضــعافها في أوروبا. فما قولك في الفرق بينها وبين الشرق؟!

الأميركي يمشـــي في ســرعة، ويعمل في ســرعة، ويتكلم في ســرعة، ويأكل في سرعة...

إذا أردت أن تعرف كيف يتحرك الأميركي في ســرعة البرق الخاطف فقف على ظهر الســفينة التي تقلك عند أول ميناء تصــله وانظر تلك الحركة الهائلة التي تتخطف الأبصـار، يفرغون جبالاً من الشـحن في أقل من ارتداد الطرف.

بل قف في أول محطة للقطارات أو الترامات وانظر الألوف من الناس كيف ينزلون أو يركبون.

أو أدخل أحد المعامل وانظر كيف يعملون.

أو أدخل الجـامعـات أو الكليـات أو المـدارس في أوقـات اللعب وانظر كيف يلعبون.

أو أدخل إلى أحد المصـــارف مع مئات الداخلين، وانظر كيف يكتبون ويحسـبون ويقبضـون ويصـرفون وينهون أشـغال الناس بأسـرع ما يمكن أن يتخيله الإنسان.[34]

قلب سلطانة القاسي

كان الســكاكيني يمضـــي في نيويورك ليالي لا يذوق فيها طعم النوم وهو يتذكر روحاته وغدواته مع سلطانة في عين كارم وأرطاس وبيت جالا غالباً، وفي مناسبتين في رام الله. وكانت باتت في بيتهم عدة مرات بموافقة أهلها.[35] وبينما كان أحد أهم الدوافع لسفره إلى أميركا كسب ما يكفي من المال للاقتران بسلطانة، غدا واضحاً من توسلاته لها أنها ليست ملتزمة كل الالتزام فكرة الزواج.

كتب خليل ما مجموعه 41 رســالة إلى ســلطانة، 21 منها بعث بها من نيويورك. وقد وصــل إلينا من هذه كلها 35 رســالة تتيح لنا أن نطل على علاقتهما، وأن نتعرف على طريقة التودد قبل الزواج في فلســطين في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى. لقد غادر الســكاكيني فلســطين من دون أن يخطب ســلطانة رســمياً؛ ولهذا بقيت العلاقة

(34) Suleiman, op. cit.؛ خليل السكاكيني، "ما تيسر"، مصدر سبق ذكره، ص 96.

(35) ي خ س، رسالة إلى سلطانة، 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1907.

بينهما سرية محجوبة عن عائلتيهما. ولم يكن يعرف بأمر تعهدات أحدهما للآخر سوى داود. وعلى الرغم من توسلاته، وعلى الرغم من بضعة تهديدات بأن يقطع العلاقة إن لم تستجب، فإن سلطانة لم تكتب إلى خليل وهو في أميركا سوى مرة أو مرتين. كان ثمة ثلاث فِكَر رئيسية تتكرر في كل رسائله: إعادة وصف كل لحظة أمضاها معها في القدس وخلال نزهاتهما في محيط المدينة؛ قلقه من العودة وليس معه ما يكفي من المال لجعله في عينها جديراً بها؛ شعوره الجارف بأنه عديم الأهمية وبأنه يحرم رجالاً آخرين أكثر ملاءمة منه للزواج بها.

وخلافاً لفقرات يوميات السكاكيني التي تتضمن وصفاً مستفيضاً لحياته في بروكلين وعمله في مانهاتن فإن رسائل الحب التي كتبها تتمحور حول الحنين إلى الماضي – أو حول تأنيب الذات لأنه سمح لنفسه بمفارقتها. كتب في 52 تشرين الثاني/نوفمبر 1907:

> *إشرحي لي يا سلطانة لماذا سمحت لي بالافتراق عنك؟ إن كل ما في أميركا من ثروات وعجائب لا تزن في عيني الخسارة والألم اللذين أعانيهما في غيابك عني. وماذا لو أخفقت في نهاية المطاف. تقولين: ما هما إلاّ سنتان. ولكن سنتين في البعد عنك هما كألف سنة.*[36]

بعد احتفالات رأس السنة الجديدة في نيويورك توجه خليل مع أحد معارفه المقدسيين، وهو الدكتور نجيب جمل، لمشاهدة المدينة من على ناطحة سحاب في مانهاتن. وقد أخبره نجيب أنه يريد منه أن يتوسط له في طلب يد سلطانة، ثم أخذ يطنب في وصف حسنها ومزاياها. وكان خليل سمع سابقاً ثناء كهذا من عيسى العيسى (لاحقاً محرر جريدة "فلسطين" في يافا) ومن أفتيم مشبك. والغريب أن خليل لم يجد لديه الجرأة الكافية ليحدّث نجيب عن علاقته بسلطانة.

بعد أشهر من التوسل والاستجداء ردت عليه سلطانة بخطاب واحد. يعكس أسلوبها موقفاً واقعياً مباشراً إزاء محدِّث عن بؤسه، لكنه يظهر أيضاً بلاغة أدبية في استعمال اللغة. وأسلوب سلطانة، كأسلوب خليل، حديث وخال من العبارات المنمقة التي كانت شائعة بين الكتّاب العرب آنذاك. كانت كتابتها النقيض لعاطفته الزائدة، ولرثائه للنفس، ولفورات تحقير الذات التي كانت تنتابه.

عزيزي خليل

وصلتني جميع رسائلك عن يد يعقوب [فراج] ابن خالتك، فأشكرك عليها، وعلى حبك الخالص.

(36) المصدر نفسه.

كنت أرجو أن تكون إنجيلاً لي، ولكن بكل أسف أقول: إني لا أقدر أن أقرأها أكثر من مرة أو مرتين، لأني أتألم كلما قرأت أنك تقضي أوقاتك بالنوح والبكاء كلما ذكرتني.

إني لم أمت بعد لتجعل دموعك سواقي، وكلامك مراثي.

لماذا لا تبتسم كلما ذكرتني. لا تجعل البشاشة تمحى عن وجهك يا خليل.

ألا يوجد في أميركا خبر سار، أو شيء عجيب، تحدثنا به. ما هذا يا خليل؟! لا تجعل البكاء شغلك الشاغل. خليل! أخبرني عن رجل عظيم ارتقى في سهولة، ما الصعوبات إلاّ سلم السعادة، لا تقدر أن تصعد إلى أعلاه ما لم تصعد كل درجة وحدها، فإن لم تصعد بصبر لا تنل ما في أعلاه، ومن صبر نال.

إن الإنسان الذي له قلب وعقل مثلك ولم تكلله السعادة بتاجها اللامع، فإني لا أعود أؤمن بوجود سعادة في الحياة. لا تقل لي بعد اليوم: ربما لم أوفق، وقد أرجع كما أتيت. ما هذا الكلام يا خليل؟ لماذا لا توفق؟ وما الأسباب التي تمنعك من التوفيق؟ بالله لا تعد تسمعني مثل هذا الكلام.

توقفت هنا عن الكتابة لأرى من دق الجرس، هذه ميليا جاءت مع ابن خالتك حنا ومعها رسالة منك لي. هذه أول رسالة سررت بها، إنني لم أقرأها أمامها، لأني لا أريد أن تعرف شيئاً عن حبنا مني، ولقد كذبت على من أراد أن يسمع رسائلك بأن قلت: إنها باللغة الإنكليزية، أوصتني ميليا أن أقول لك لا تكتب بالإنكليزية بعد اليوم لأنها تريد أن تقرأ بعض رسائلك.

لماذا لا ترسل رسائلك إليّ رأساً عن يد المطران أو باسم المدرسة حتى لا تكون موضوع إعجاب الجميع، فلا تعود تصل إلى أحد قبلي؟

لم أر يعقوب بعد ذهابك إلاّ ثلاث مرات، ولم نقدر مرة أن نتحادث ونتذكر ما مضى.

كل من سمع بخطبته انبسط، فالله أسأل أن يهنئهما ويسعدهما ويوفقهما، يا ليته خطب، وأنت في القدس يا خليل.

لم أقدر أن أذهب إلى يافا في هذه العطلة، لأني ذهبت في أولها إلى نابلس لأعمد ابن أختي، فأقمت هناك مع والدي ستة أيام، ولمّا رجعنا كان يعقوب في يافا.

لم تأت ميليا إلى البيت إلاّ بعد رجوعي.

كنت ناوية أن أذهب مع سليم لنحضرها، ولكنها أتت على غفلة. صرفنا أكثر أوقاتنا معاً، كانت تأتي وتنام عندي أكثر الليالي، وكنا نسهر وحدنا ونحيي لياليا بذكر الأوقات التي صرفناها معاً، لم نتكلم إلاّ بذكرك مع يعقوب وداود، لقد صرفنا أوقاتاً لن ترجع إلى الأبد.

أترجع شطحة أرتاس يا خليل؟ سلام على ذلك النهار، فإن ما جرى فيه قد كتب على قلوبنا بحروف لا تمحى، يجب أن يكون لسنتنا الماضية تاريخ مؤبد خالد.

أنا أكتب الآن والقمر مشرق من بين أغصان الزيتون ينظر إليّ، فأشعر كأني لا أكتب، بل أخاطبك فماً لفم، عرف أني أكتب لك فجاء يحييني، ويأخذ روحي ليوصلها إليك غداً.

أنظر دائماً إلى طلوع القمر وغياب الشمس، فأذكرك وأخاطبهما أحياناً وأقول: سلّما على خليل كلما نظر إليكما، أشرقا أشعة السعادة عليه، إملآ الكون جمالاً وبهجة حتى يبتسم لكما وجه خليل وقلبه، لا أحد غيركما يحمل تحياتنا ويخدمنا.

لي شبّاك على الجنينة، وبقربه شجرة زيتون، فكلما اعتدل الطقس وأشرقت الشمس، رأيت العصافير واقفة على أغصانها تزقزق وتنظر إليّ كأنها تخاطبني، لا شك أنها حاملة تحية من أميركا، فأجيبها بأضعاف حملها.

طلبت مني أن أعمل لك صورة بدل التي تكسرت، ولكن بكل أسف أقول إني لا أقدر أن أحصل على واحدة مثلها لأن الزجاجة الأصلية تكسرت، ولكن إكراماً لخاطرك أخذت يوسف أخي في اليوم الثاني لعيد الميلاد، وتصورنا عند ملتياوي لنرسل إليك واحدة، وسأرسلها وحدها في البوسطة، فعسى أن تصل سالمة.

يظهر من الرسالة أن سلطانة ملتزمة العلاقة، لكنها لا تريد أن يعتبرها خليل بحكم المخطوبة. وفي مناسبتين أُخريين على الأقل أومأت إليه بأن لا شيء مضمون. في تشرين الأول/أكتوبر 7091 مثلاً كتبت إليه – عندما كان يتهيأ لبدء رحلته إلى أميركا – "سوف أتعهد لك بحبي ما دمت قادرة على التحكم في مصيري"، ثم أضافت عبارة غامضة: "ما أشد سعادتك وابتهاجك، ولكن لا راحة لمن تتركهم خلفك."[37]

(37) المصدر نفسه، رسالة من سلطانة، 20 كانون الثاني/يناير 1908.

واضطرب خليل، وردّ من فوره: "ماذا تقصدين؟ هل تقولين أنك لو صادفت شخصاً آخر، أو لو أن أهلك اقترحوا بديلاً، أو أجبروك على بديل فإنك ستخضعين؟ آمل ألاّ يكون هدفك أن تعذبيني بهذا الكلام." ثم استخدم تورية باسميهما: "وما يمنع أن أكون خليلك وأن تكوني سلطانتي؟ فلتأخذك يا سلطانتي الرأفة بخليلك."[38]

بعد عدة أشهر في أميركا بدأت آمال خليل بالحصول على دخل ثابت تتبدد. وتوقف طلبته القليلون الدائمون، ومعظمهم من طلبة جامعة كولومبيا، عن التردد إليه بانتظام لقلة مواردهم. وكان الباحثون الذين يكلفونه تصحيح أعمالهم يتأخرون في الدفع، وكانت جريدة فرح أنطون "الجامعة" تخسر باستمرار. وقد حزم أمتعته ورحل يائساً إلى ولاية مين للعمل في مصنع ورق لقاء أجر موعود هو اثنا عشر دولاراً في الأسبوع. ولمّا كانت نفقات السكن والطعام تبلغ ستة أو سبعة دولارات فقد قدّر السكاكيني أنه يستطيع توفير خمسة دولارات أسبوعياً.

لكن لم يكد يمضي وقت طويل حتى أجهده العمل في مصنع الورق. في القدس كان معلماً محترماً، وإن لم يكن يتقاضى ما يستحق من مال، وكان فرداً مواطناً ذا مكانة في مجتمعه، ومحاطاً بأصدقاء يحبونه ويحبهم. وكان له في داود وسلطانة ما يمنحه الأمل والعزاء. ولسوء طالعه مات داود، وسلطانة لا ترد على رسائله. وبحلول الربيع كان اليأس بلغ منه كل مبلغ. يوم الجمعة، الواقع فيه 17 تموز/يوليو 1908، كتب إليها من رمفورد فولز:

حبيبتي *سلطانة:*

ربما هذه آخر مرة أناديك حبيبتي لأن هذا النداء يعني أني لك وأنك لي كما كانت أحلامنا، نعم، على هذا تعاهدنا، ولكن هل يحق لمن كان مثلي تعساً شقياً محروماً بل عاجزاً عن إدراك أمانيه، قاصراً عن البلوغ إلى ذروات المجد وشرفات العز، أن يمني نفسه بالحصول عليك، ويقرن حياة سعيدة إلى حياة شقية. نعم يا سلطانة حياتي شقية. أنا ابن الشقاء، حوّلي نظرك عني لئلا يعلق بك شقائي. أنبذيني نبذ النواة، أنكثي حبل ودي، إقطعي علائقي، أهجريني إلى الأبد، مزقي رسائلي، إحرقي كل آثاري، إنسيني، لا تذكري اسمي، فإنه أحقر من أن يخرج من شفتيك الطاهرتين، وإذا ذُكرت أمامك فقولي: لا أعرفه. ولكن قبل كل شيء يا سلطانة: أرجوك أتوسل إليك بدموعي أن تصفحي عني، فقد آلمت قلبك ووقفت حجر عثرة في سبيلك، أنا الظالم أنا القاسي، لأني كان يجب أن أعرف مقدار نفسي ولا أتعرض

(38) المصدر نفسه.

لك، سامحيني يا سلطانة ولا تحرميني من عفوك. خسرت كل شيء خسرت صديقي خسرت مستقبلي، ولكن كلمة عفو منك يا سلطانة، كلمة فقط، فأتعزى بها عن كل شيء.(39)

كتب خليل ثلاث رسائل على هذا النحو. كتب في رسالة لم يبعث بها: "أتمنى لو لم أكن عرفتك يا سلطانة... كل الناس يحبونك. اختاري محباً يستطيع أن يسعدك." ثم أضاف ملاحظة لم يسبق أن ورد مثيل لها في رسائله السابقة: "أكتب إليك بلغة ما كنت أجرؤ أن أكلم بها أمي أو أختي.. لأنك استبدلت بقلبك الرقيق قلباً أصلب من الفولاذ وأغلظ من الغرانيت أكلمك على هذا النحو."(40)

لكن، في غضون عشرة أيام عاد إلى سابق عهده. كانت لهجته ما زالت متحفظة، لكنه استعاد ثقته. وعادت مرة أُخرى "حبيبته". كتب في 72 تموز/يوليو: "أتهيأ لرحلة العودة للوطن، أتمنى أن أطير إليك طيراناً. وآمل أن يكون لقاؤنا بداية حياة جديدة وسعيدة. سأعود وحبي يثقله الحزن والألم، ولكن مرارتي ستتبخر في اللحظة التي أراك فيها تبتسمين. أنت عزائي، وبهجتي."(41)

حب مراوغ

لئن كانت صورة سلطانة وما تبثه من أمل قد أعانا خليل على الفرار من هموم الحياة اليومية في نيويورك، فإن داود صيداوي كان الأيقونة التي تشده إلى جذوره في القدس. وذكرياته عن داود تشبه الأحلام، كما أن داود كان يظهر دائماً في أحلام خليل التي كان يحرص على تدوينها كل يوم. قبل أن يغادر القدس كان داود "شقيق روحه"، وموضع نجواه. كان الوحيد الذي يسرّ إليه بأمر علاقته بسلطانة وبتطوراتها ومشكلاتها.

كان موت داود (الذي بلّغته إياه، برسالة، "مس سِنْغر" التي لا نعرف عنها شيئاً، وذلك بعد أربعة أشهر من وصوله إلى بروكلين)،(42) أكبر نكسة تلقاها خليل في أثناء إقامته بأميركا:

يا داود يا يوناثاني، يا حبيبي، يا شقيق روحي، يا شطر حياتي، يا كل آمالي، يا كل سروري، يا كل سعادتي، كيف تركتني وحدي؟ ليت أيامي انقضت وأنفاسي تصرمت قبل أن تنقضي أيامك وتنصرم أنفاسك، ليتني أُدرجتُ في كفني قبل أن أُدرجتَ في كفنك، ليتني

(39) المصدر نفسه، رسالة إلى سلطانة، الجمعة 17 تموز/يوليو 1908 (مقتطفات).
(40) المصدر نفسه، رسالة غير مؤرخة إلى سلطانة، [تموز/يوليو؟] 1908.
(41) المصدر نفسه، رسالة إلى سلطانة، 27 تموز/يوليو 1908.
(42) المصدر نفسه، 25 كانون الثاني/يناير 1908.

أنزلت في حفرتي قبل أن أنزلت في حفرتك، ليت التراب هيل عليّ قبل أن هيل عليك، بل ليتني كنت فداك. ليتك عشت يا داود، ليتك بقيت لضعف حالي، لست عنك بصابر، ولن أذوق بعدك سلوى. إن مت يا داود فسأموت عليك كل يوم. إن عالماً انقطعت عنه لست فيه براغب، إن داراً خلوت منها لست أجد فيها إلاّ وحشة. لم يكن يعزيني إلاّ وجودك. لم يكن يسرني إلاّ بقاؤك. لم أستطب هذه الحياة إلاّ معك. لم أهنأ ساعة من ساعاتي إلاّ بقربك، متى أرجع فأجثو بجانب قبرك أسقيه بدموعي وأمرّغ وجهي بترابه وأدق صدري بحجاره. أبعد أن تكون ملء العيون والقلوب تترك في التراب.. إن مت يا داود فأنا ميت ولو كنت بين الأحياء.[43]

وبعد شهرين كان ما زال يعاني نوبات اليأس والاكتئاب:

سأذكرك يا داود كلما ذكرت الحياة الجميلة، سأذكرك كلما اختلجت فيّ عاطفة أو هجس في صدري هاجس. لا أرى شيئاً أو أسمع شيئاً أو أقرأ شيئاً أو أتصور شيئاً إلاّ ذكرتك. كنت ملء تصوري وقلبي وفكري ونظري وسمعي وسائر حواسي، فكيف أنساك؟[44]

ورسائله مفعمة بالإيماءات من الكتاب المقدس (″يا يوناثاني″، ″لتنسني يميني إن نسيتك يا داود، وليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك″، إلخ)، وممزوجة بالعبارات المنمقة المقتبسة من المنفلوطي، في مطلع القرن. (وقد اختفى هذان العنصران من أسلوبه بعد عودته إلى فلسطين).

في يوميات خليل الأميركية ظل داود شخصية مهيمنة في الحياة والموت. وهو يظهر بأكثر الصور حيوية في تدوين خليل لأحلامه بالتفصيلات الخلابة. بعد شهر من وصول نبأ وفاة داود يتذكر السكاكيني لقاء في يافا:

في مثل هذا اليوم من شهر ت1 غ/1907، أي قبل أربعة أشهر تعانقنا على شاطئ البحر المتوسط، ألقيت رأسي على صدرك وبكيت البكاء المر كأني أحسست أن فراقنا سيكون إلى الأبد. ركبت أنا البحر وأنت وقفت على الشاطئ عاقداً يديك على صدرك تشيعني بنظراتك المملوءة عطفاً ومحبة، ولست أعلم ماذا كانت أفكارك في تلك الساعة. هل خشيت أن تعترضني الخيبة ويلازمني الشقاء، أم خشيت أن تموت فلا أعود أراك؟ لقد وقع ما كنت تحاذره. إذا وقفتُ غداً على ذلك

(43) المصدر نفسه.

(44) خليل السكاكيني، ″كذا أنا يا دنيا″، مصدر سبق ذكره، ص 20.

الشـاطئ ولم تكن هناك فماذا يعزيني؟ سـأقبل تراباً وطئته قدماك، سـأقف هناك أنظر إليك وأنت على الشـاطئ الآخر، شـاطئ الحياة الأبدية ولكن بعين دامية..[45]

بعد هذا المدخل في اليوميات نرى ظاهرة جديدة باعثة على الدهشـة: في تدوينه لأحلامه يبدأ شخصا داود وسلطانة بالتداخل والانصهار. ليس واضحاً ما الذي كان يدور في عقل خليل، لكن يبدو أن هذا الربط هو نتيجة الشـعور بالخسـارة المزدوجة: خسـارة داود المادية بالموت، وازدياد الجفاء من جانب سـلطانة. في شـباط/فبراير 1908، نقرأ هذا المدخل الغامض في اليوميات:

قضيت الليل كله معك. نمت نوماً متقطعاً. قمت صباحاً خائر القوى فلزمت فراشي النهار كله، فتذكرت أمي وأيام سعادتي فلم أتمالك دمعي.[46]

ومرة أُخرى في 7 آذار/مارس يكتب ما يلي:

حلمت أني كنت في القدس وأني كنت راجعاً معك في المساء إلى دارنا في البلد، فلمّا قربنا من الباب رأيت باب جيراننا مفتوحاً، ولمّا دخلنا قبلتك.[47]

لكن سلطانة كذلك لم تكن تستجيب لعواطفه. كان شخص داود الطاغي، على الرغم من أنه لم يعد موجوداً بلحمه ودمه، يمتزج بشوقه إلى الحصول على حب سلطانة الذي كان يفرّ منه باستمرار. كان موضوعا هيامه – داود وسلطانة – يتّحدان في تخيلاته.

المدينة الزائلة العابرة

كان كل مدخل في اليوميات تقريباً مما كُتب في بروكلين أو رمفورد فولز يبدأ بسـرد للأحلام، وأحيانـاً ينتهي بـه. معظم هذه الأحلام يحدث في مكان معين في القدس – نزهات مع سـلطانة، وأحاديث مع داود، ونزهات عائلية، وأحداث غريبة يشترك فيها أشخاص شتى من المعارف. وكثيراً ما كان هناك مشاهد للموت والدفن والصعود. وكانت تلك الإسراءات إلى المدينة المقدسة عبارة عن هروب من نيويورك، أو أن خليل كان يجد نفسـه محمولاً في الفضـاء من نيويورك إلى القدس. وبهذه الصـفة أضحت نيويورك في هذه الأحلام مكاناً لإقامة عابرة.

في كل حلم مفصّل هناك فكرة وجود تضـادّ بين شخصية خليل الأميركية وبين كونه "ابن القدس". ومعظمها يقارن بشـاعة نيويورك الصـناعية بوداعة فلسـطين الطبيعية. العودة إلى القدس، بالنسـبة إليه، فرار من الآلة المتوحشـة للمدينة الكبرى الأميركية.

(45) ي خ س، 22 شباط/فبراير 1908.
(46) المصدر نفسه، 10 شباط/فبراير 1908.
(47) المصدر نفسه، 7 آذار/مارس 1908.

وقد تجسد هذا أخيراً في الأوضاع الصعبة التي مر بها السكاكيني وهو يعاني أشد المعاناة في مصنع الورق في رمفورد فولز، ولا سيما عندما تقارن بالحقول الواسعة في الريف عند عين كارم وأرطاس. في هذه الأحلام لا يبقى من القدس سوى ريفها (في "كذا أنا يا دنيا" كتب: "لا فرق بين العامل في المعامل وبين الآلات الصماء، يروح ويجيء بدون فكر ولا إرادة، لا أثر للعقل في كل ما يعمل. لا عجب إذا ماتت نفوس العمال وأفكارهم وذوت عواطفهم. يشتغلون عشر ساعات بدون انقطاع شغلاً شاقاً ثم لا يحصل الواحد أكثر من ريال ونصف في النهار. ما أظلم أرباب الأموال وما أقبح هذه المدنية").[48] لكن، على المرء ألاّ يغالي في مشاعر السكاكيني ضد الرأسمالية، فنقده موجه إلى طبيعة رأس المال الخالية من الروح لا إلى طبيعته الاستغلالية. في أحلامه لا يقاتل، وإنما يهرب.

ومن الأفكار المتكررة في هذه الأحلام المقارنة بين المعاصرة الباردة في نيويورك وبين الدفء الموروث في الحياة الاجتماعية في القدس. هذه المقارنات والتضادات يتم التعبير عنها بالتغيير المستمر في الزي، والانتقال باستمرار فيما بين الزي الأوروبي والزي العربي.[49] وفيما يلي مثال نموذجي من اليوميات:

> *حلمت أني رجعت إلى القدس، وكنت لابساً البرنيطة على القنباز، فاستحييت بها فنزعتها ومشيت بدونها، وكان النهار حاراً. مررت من وسط العمارة الروسية من أمام القنصلاتو [القنصلية]، ونزلت من الطريق الجديدة بين دار الحلبي ودار فيضي أفندي العلمي، وما وصلت آخر هذه الطريق حتى رأيت نفسي حافياً بدون قمباز وعليّ عباءة بيضاء، فاعترضتني جارية سوداء وقالت: ماذا تريد؟ فقلت: أريد أن أذهب إلى دارنا، فأشارت إلى سياج وقالت: ثب من فوقه فوثبت فعلقت عباءتي بالشوك فتعبت في تخليصها..*[50]

إن الذهاب إلى القدس تعترضه دائماً العقبات، وهناك طرق فرعية للهروب (من نيويورك؟). وثمة دائماً قفز فوق الأسوار، وارتداء ملابس وخلع ملابس على نحوٍ لم يكن خليل ليدونه إلاّ متردداً لو كان على علم بما كان فرويد كتبه قبل أعوام. قبل وفاة داود مباشرة كتب خليل المدخل التالي عن صديقه. (في هذه الحادثة بالذات، مثلما في حوادث أُخرى كثيرة، يُدهش المرء للإشارة الإيمائية إلى المسيح في العشاء الأخير):

---

(48) خليل السكاكيني، "كذا أنا يا دنيا"، مصدر سبق ذكره، ص 29.

(49) كتب إسحق الحسيني عن زي خليل السكاكيني قبل الحرب العالمية الأولى: "كان يرتدي الملابس العربية التقليدية، القمباز (الغنباز)، والعباءة البيضاء في الصيف، وعباءة صفراء من الصوف في الشتاء، مع الطربوش على الرأس." قارِن: الحسيني، مصدر سبق ذكره، اللوحة 17. لكن كيف نفسر ملابسه الغربية الطراز في الصور التي تعود إلى العام 1905/1906؟ إمّا أنه كان يستخدمها لوثائق السفر الرسمية، وإمّا أنه كان يلبس أزياء مختلفة بحسب المناسبة.

(50) ي خ س، 29 شباط/فبراير 1908 (مقتطفات).

كنت في القدس مع داود وقد امتلأ قوة وحياة وأشرق وجهه بابتسامات حلوة، فمررت معه على مخزن الأميركان[51] ولكن لم ندخل، ثم مررنا على مخزن الطرزي فكانوا يبتسمون لنا. كنت أقول لداود الحمد لله قد خلصت من الموت، فيجب أن تعتني بصحتك أشد الاعتناء لئلا تقع في ما وقعت فيه مرة ثانية، ثم رأيت نفسي أثب على سطوح المنازل إلى أن جئت إلى سطح منزلنا فنزلت ولكن عارياً.[52]

وعندما عاد خليل أخيراً إلى القدس توقفت الأحلام، أو أنه توقف عن تسجيلها.[53]

عند قراءة المذكرات كاملة يتضح للقارئ أن "مهمة" السكاكيني الفاشلة في نيويورك كانت مجرد حدث عابر، وقلما تطرق إليها في كتاباته اللاحقة. لقد انخرط سريعاً في معركة مختلفة: السعي لإصلاح تعليم اللغة العربية، والتحرك نحو الإصلاح الدستوري العثماني، والنضال من أجل تعريب الكنيسة الأورثوذكسية. لقد استقبلته سلطانة استقبالاً دافئاً، وإن لم يكن حماسياً. وأصبحا خطيبين رسمياً قبل انتهاء السنة. وتزوجا في القدس في 12 كانون الثاني/يناير 1912، وكانت سلطانة في الرابعة والعشرين وخليل في الرابعة والثلاثين. وقد أنجبا ثلاثة أطفال: سري الذي مات في أول سن الرجولة وأورث أباه الحسرة، وهالة التي نشرت عدة كتب عن والدها، بما في ذلك مختارات من يومياته ("كذا أنا يا دنيا"، 1955)، ودمية التي توفيت في رام الله سنة 2003. في كل ما كُتب عن حياة السكاكيني من كتب ومقالات تعتبر فترة إقامته بأميركا فاشلة، وعاماً مفعماً بالبؤس.[54]

أمّا هالة السكاكيني فكان لها وجهة نظر مخالفة في هذا الموضوع، حيث تبدي هذه الملاحظة المختصرة في مذكراتها هي: "ذهب (إلى أميركا) آملاً أن يجد عملاً مناسباً وأن يستقر هناك في نهاية المطاف، ولكنه لم ينجح، وتبين أن السنة 1907/1908 كانت من سنوات الكساد في أميركا. وبعد غيبته تسعة أشهر، عانى فيها من مشكلات عديدة، عاد أبي إلى القدس. وحتى هذه التجربة، رغم أنها امتلأت بالشقاء، فقد أثرته من عدة نواح."[55]

على أن كل من كتب سيرته، بمن فيهم هالة السكاكيني، لم يوضح ما هي مؤثرات تلك الرحلة بالنسبة إلى شخصيته. ومن قراءتي لتلك الرسائل والمداخل في اليوميات

(51) النزل (والمدرسة) السويدي الأميركي الذي تم تحويله لاحقاً إلى فندق في حي الشيخ جراح.

(52) ي خ س، 30 كانون الثاني/يناير 1908 (مقتطفات).

(53) عاد السكاكيني إلى تدوين أحلامه بعد عدة أعوام، في العشرينات.

(54) أفضل سيرة للسكاكيني هي: حداد، مصدر سبق ذكره، ص 45 – 47. أنظر أيضاً الحسيني، مصدر سبق ذكره، ص 20 – 24.

(55) هالة السكاكيني، "أنا والقدس: سجل شخصي"، مصدر سبق ذكره، ص 4.

التي لم تعرف طريقها إلى النشر قبل الآن، نجد ثلاثة أبعاد اغتنت بها شخصية السكاكيني نتيجة إقامته بالمهجر. أولاً، التجربة الغنية التي ساعدت بها الحياة الثقافية لنيويورك، على الرغم من كل ما فيها من بؤس، في توسيع آفاقه الفكرية وحثها. وقد عرّفه عمله مع فرح أنطون تحديداً على كتابات نيتشه التي أصبح لها – بشكل ما – تأثير أساسي في تفكيره.[56] وأهم من ذلك أن عمله التحريري في جريدة "الجامعة" جعل لغته أرشق وأقل زخرفاً كما غدا واضحاً من تحريره للمجلة الثقافية "الأصمعي" في القدس بعد عودته من نيويورك. بعد عدة أعوام، وبينما كان يمضي أشهراً عصيبة في السجن العثماني في دمشق، عاد خليل بفكره إلى العام الذي أمضاه في بروكلين وانتابه حنين إليها. في بداية سنة 1918 كتب يقول:

> *وليس أدعى لسعادتي من أن أرى ابني بثياب اللعب، عاري الساعدين والساقين، مكشوف الرأس، يثب على درج جامعة كولومبيا في نيويورك، والهواء يعبث بشعره الذهبي، إلى ساحة اللعب حيث يشترك مع اللاعبين بتلك الألعاب المروضة للجسم التي تقتضي السرعة والرشاقة والنشاط والإقدام والنظام والانتباه. بل ما أسعدني حين أجلس مع عائلتي الصغيرة لتناول الشاي في منزل صغير جميل أنيق في نيويورك أو بروكلين أو إحدى القرى المجاورة.*[57]

أخيراً لا شك في أن هجرة السكاكيني إلى أميركا، والمآسي التي حلت به في تلك الفترة، من وفاة داود وتردد سلطانة في مبادلته العواطف، قد ساعدته في التأمل في معنى الحب والفقدان. أمّا الأول فلم يعد يأخذه على أنه مضمون (إذ كان عليه أن يقاتل للحصول على حب سلطانة)، وأمّا الثاني فقد حصّن شخصيته وجعلها أصلب. لم يعد يطمئن إلى العثور على الراحة في بيئته التقليدية، الأمر الذي كان الرجال في سنه يتهيأون له في العادة. كانت تلك الصعوبات امتحاناً لشخصيته وعمق مشاعره. ولقد بُذرت هناك بذور التمرد والشك – ونبتت وأصبحت أكثر تركيزاً بعد عودته إلى القدس ليواجه معارك فكرية عشية الحرب العالمية الأولى: الصراع ضد طغيان الدولة، وضد مجتمعه التقليدي.

أجمل ما في مذكرات السكاكيني هو استحواذه واسترجاعه لآنيّة التجربة كما عايشها: ضوضاء الحشود المكتظة في السفينة من الإسكندرية إلى مارسيليا؛ طعم الخبز المغمس في الطحينة والعسل – فطوره اليومي؛ ارتعاشه وهو يقرأ رسائل سلطانة في شقته الصغيرة في بروكلين؛ نقاشاته مع فرح أنطون في مكاتب جريدة "الجامعة" – في سورية الصغيرة – حول فلسفة القوة؛ بكاؤه المرير على وفاة صديق العمر داود

(56) الحسيني، مصدر سبق ذكره، ص 23.

(57) خليل السكاكيني، "كذا أنا يا دنيا"، مصدر سبق ذكره، الجمعة 4 كانون الثاني/يناير 1018، ص 124 – 125.

صيداوي؛ لهاثه وهو يركض خوفاً من بطش عصابات نيويورك. كل هذه الأمور حدثت مساء الأمس، بل صباح اليوم، دوّنها خليل بعناية في دفتره فأطفأ الشمعة ونام عليها. ثم عادت لنا بعد مئة عام وهي مفعمة بالحيوية والعنفوان.■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf